إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتلاقون يتساءلون من قتل البارحة من صلب من
جلد في أمثال ذلك. وكان الوليد صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس
يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس
الأشجار. ولما ولي سليمان بن عبد الملك كان صاحب نكاح وطعام فكان
الناس يتحدثون في الأطعمة الرفيعة ويتوسعون في الأنكحة والسراري
ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك. ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله
عنه كان الناس يتساءلون كم يحفظون من القرآن وكم وردك في كل ليلة
وكم تصوم من الشهر وفي أمثال ذلك. انتهى.

الباب السادس في أن السلطان مغبون غبن غابن

اعلموا أرشدكم الله أن خطر السلطان عظيم وبليته عامة
وقد تطرقه من الأسباب وتحتوشه من الأمور المهلكات ما يجب على كل
ذي لب أن يستعيذ بالله مما حمله لا يهدأ فكره ولا يسكن خاطره ولا يصفو
قلبه الخلق في شغل عنه وهو مشغول بهم والرجل يخاف عدوا واحدا وهو
يخاف أعداء كثيرة والرجل يضيق صدره بتدبير أهل بيته وهو مرجوع لسيا
سة جميع أهل مملكته وكلما رتق فتقا من جوانب مملكته انفتق أخرى
وكلما رم منها شعبا رث منها أخرى هذا مع ما يعانيه من اختلاف وفي أسبابه
من خصوماتهم ونصب الولاة والقضاة وتوجيه الجيوش وسد الثغور واستيفاء
الأموال ورفع المظالم ثم إن من العجب العجاب أن له نفسا واحدة وإنما يرزق
من الدنيا مثل ما يرزق آحاد الرعايا ثم يسأل غدا عن جميعهم ولا يسألون عنه
فيا لله ويا للعجب من رجل رضي أن ينال رغيفا ويحاسب منها على الآلاف
الآلاف ويأكل في معى واحد ويحاسب على الآلاف معا ويستمتع بنفس
واحدة ويحاسب على الآلاف من الأنفس وعلى هذا النمط في جميع أحواله
يحمل أثقالهم ويجاهد عدوهم ويسد ثغورهم ويعصي ربه فيهم
ويخالف أمره ويركب نهيه من أجلهم ثم يجدهم ما يلين عنه غير راضين
ولولا أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه لم يرض عاقل منها بمنزلة ولم
يختر الهيبة من تبعة. وكلما ذكرته في هذا الباب أحكمه النبي صلى الله
عليه وسلم

عليه وسلم في كلمة فقال إنكم وللإمرة لكم صفو أمركم وعليهم كدره
ومثال السلطان مع الرعية كالطباخ مع الآكلة عليه العناء ولهم
الهناء وعليه الحار ولهم القار طلب القوم الراحة فحملوا على التعب وعلى
هذا قال سيد القوم أشقاهم. وفي الحديث ساقي القوم آخرهم شربا
وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوما وبين يديه الوزعة إذ نظر إلى
جماعة من التجار فقال للوزير أتحب أن نريك ثلاث طوائف طائفة لهم
الدنيا والآخرة وطائفة لهم دنيا بلا آخرة وطائفة لا دنيا ولا آخرة
قال وكيف ذلك أيها الملك قال أما الذين لهم الدنيا والآخرة
فهؤلاء التجار يكتسبون أقواتهم ويصلون صلاتهم ولا يؤذون أحدا
وأما الذين لا دنيا لهم ولا آخرة فهؤلاء الأشرار الشرط والخدمة
الذين بين أيدينا. وأما الذين لهم دنيا بلا آخرة فأنا وأنت وسائر
السلاطين نجور على جميع الورى أن نحج(؟) والسلطان في المناكحات ويخصون
بالدعوات ويكونوا له أعينا نظارة وأيديا باطشة وهيهات منه
بالسلامة وأنى له بالسلامة وعن هذا قال بعض السلاطين لأصحابه
يوما اعلموا أن السلطان والجنة لا يجتمعان. وحدثني رجل له قدر قال
أرسل إلي السلطان أن تطلب إمارتك وكان قد أرادها البعض أصحاب
فأبيت ذلك وراجعت الرسول غير مرة فقال لي خذ الأمر مقبلا فإنه
لا حيلة لك وإن السلطان لا يخاف في الدنيا عارا ولا في الآخرة نارا
فعار فتنها. وروي عن عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة أخذ
المصحف ووضعه على حجره وقال هذا فراق بيني وبينك. وقال
ملك من ديننا ر(؟) قرأت في بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى من أحمق
من السلطان ومن أجهل ممن عصاني ومن أعز ممن اعتز بي يا راعي السوء
دفعت إليك غنما سمانا صحاحا فأكلت اللحم وشربت اللبن وائتدمت
بالسمن ولبست الصوف وتركتها عظاما تتقعقع ولم تأو الضالة
ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم لها منك. انتهى.

الباب السابع في بيان الحكمة في كون

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)